في المشكلة اللغويّة

المتزمّتون والمجدِّدون العرب

. بيان الصفدي * .

تفاقمت المشكلة اللغويّة العربيّة منذ بدء التوسّع في البحث اللغويّ والنحويّ. فغرقت العربيّة في أمور كثيرة ليست من روحها، ولا من الحاجة الطبيعيّة إلى اللغة كوسيلة تعبيرٍ واتصالٍ قبل أن تكون مجالاً للمماحكات الذهنيّة التي لا تنتهي. وأدّى ذلك إلى بروز أخبارٍ وأشعارٍ جعلت العربيَّ يهجو النحوَ والنحاة، ويستهجن ما افتعلوه من حذلقة. ومن بدايات ذلك ما جرى بين الفرزدق وعبد الله بن أبي إسحق، مَوْلى آل الحضرميّ، إذ كان شديدَ التتبُّع لما يراه أخطاءً في شعر الفرزدق الذي هجاه بالبيت المشهور: «فلو كان عبدُ الله مولى هجوْتُه/ولكن عبد الله مولى مواليا» (إلاّ أنّ ابن أبي إسحق لم يكترثْ للإهانة، بل عاد يخطِّئه لأنه لم يقل «مولى موالٍ!»).

ولا يَخْفى أنّ الأكثريّة الكاثرة من النّحاة كانت من غير العرب. وهذا خلق ردّةَ فعلٍ قويّةً لدى العرب «الأقحاح» الذين هالهم أن يخطِّئهم الموالي وأشباهُهم، وأن يَفرضوا عليهم معيارًا للصواب. لهذا قال عمّار الكلبي: «ماذا لقينا من المستعربين ومن/قياسِ نحوهمُ هذا الذي ابتدعوا؟/ما كان قولِيَ مشروحًا لكم فَخُذوا/ما تعرفونَ وما لم تعرفوا فدعوا!/لأنّ أرضيَ أرضٌ لا تشبُّ بها/نارُ المجوس، ولا تُبْنى بها البيعُ!» وبلغ هذا الهجومُ حدّاً أكثرَ إيلامًا وتعصّبًا في قول يحيى بن المبارك: «إنّ الكسائيَّ وأشياخَه/يرقُون في النحو إلى أسفلِ.» وقد يَبْلغ السخريةَ المرّةَ على حدّ قول أحدهم: «قلتُ لنحويٍّ وفي بطنه/قَرقَرة: ما هذه القرقرهْ؟/فقال: يا جاهل في نحونا/هذي تُسمَّى الضرْطةَ المُضْمَرهْ!». وابنُ فارس، اللغويُّ المشهورُ نفسُه، يتغزّل قائلاً في سخريةٍ خفيّةٍ من حجج النحاة: «مرَّت بنا هيفاءُ مجدولة/تركيّة تُنمَى لتركيّ/ترنو بطرف فاتنٍ ساحر/أضعفَ من حجّةِ نحويِّ!»

❖ ❖ ❖

والأخبارُ عن التشدُّق والإغراب كثيرة نجدها في كتب النوادر، وفي باب نوادر النحاة على الأغلب. وهذا ما دفع عددًا من اللغويين إلى محاولة تبسيط النحو وتقريبه إلى الأذهان؛ وهو ما فعله خلف الأحمر في مقدّمته، والنحّاس في **التفّاحة**، والزجاجي في **الجُمَل**. ولعلّ الجاحظ من أهمّ مَنْ سخِر من الحذلقة اللغويّة، وله في ذلك آراءٌ مشهورةٌ عميقة، نلخّصها في إيمانه بأنّ اللغة وسيلةُ فهم، عليها أن تؤدّي هذا الغرضَ بأدقّ أسلوبٍ وأجمله، وأنّ لها عدّةَ مستويات: فـ «إنّ سخيف الألفاظ مُشاكلٌ لسخيف المعاني، وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتعَ بأكثر من إمتاع الجزلِ الفخمِ ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني.» وقد نقل لنا خبرًا مهمّاً جدّاً يوضح كيف أنّ المبالغة في التفريع والتعقيد النحويّيْن ارتبطتْ بهدفٍ ماديّ ومعنويّ:

«وقلتُ لأبي الحسن الأخفش: أنتَ أعلمُ الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعلُ كتبَكَ مفهومةً كلّها؟ وما بالنا نَفهم بعضَها ولا نَفهم أكثرَها؟ وما بالكَ تقدِّم بعضَ العويص وتؤخِّر بعضَ المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه للّه، وليست من كتب الدين؛ ولو وضعتُها هذا الوضعَ الذي تدعوني إليه، قلَّتْ حاجاتُهم إليَّ فيها. وإنما غايتي المَنالة؛ فأنا أضع بعضَها هذا الوضعَ المفهومَ لتدعوهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهمِ ما لم يَفهموا. وإنما قد كسبتُ مِن هذا التدبير، إذْ كنتُ إلى التكسّبِ ذهبتُ!»

وقد اتُّهم واضعو النحو الأوائل بأنهم طَبّقوا عليه مبادئَ علم الكلام والفلسفة اليونانيّة؛ وأشهرُ مَنْ يمثّل هذا الاتجاهَ الدكتور إبراهيم بيومي ومحمد الكسّار. فالنُّحاة راحوا يضعون للكلام العربيّ نظامًا مرسومًا وقواعدَ صارمة: فهم يتجرّؤون على نظام العربيّة الموروث، فيخطّئون العربَ الفصحاء، إلى الحدّ الذي جعلهم يضعِّفون بعضَ القراءات الصحيحة للقرآن الكريم، مع أنهم عَدُّوه مصدرَ السلامة اللغويّة الأول. لقد تحكّمت القاعدةُ باللغة، وبدأتْ حركةُ التخريج المعروفة للكثير من الأساليب

* ـ كاتب للكبار والصغار من سوريّة.

ما نطلبه هو ألا يتحوّل اللغويّ إلى عبء على اللغة، لا دور له إلاّ حراسة ضريح، لا حراسة لغةٍ حيّة قادرة على أن تتطوّر مع حاجات أبنائها!

القرآنيّة التي لا تتفق مع قاعدتهم. وإنّ الصورة السليمة التي نَطْلبها الآن من اللغويّ هي أن يُحْسن تفسيرَ الظاهرة اللغويّة، وأن يضعَها في سياقها التاريخيّ، وأن يستطيع أن يفهم بشكلٍ حيّ واقعَ اللغة العربيّة الحاليّة، فلا يتحوّل إلى عبء على اللغة، لا دورَ له إلاّ حراسة ضريح، لا حراسة لغةٍ حيّةٍ قادرةٍ على أن تتطوّر مع حاجات أبنائها.

❖ ❖ ❖

إنّ ما أقوله هنا لا يعني الاستخفافَ بالجهود الجبّارة التي بذلها كثيرون من أجدادنا. فالنحو العربيّ شكّل النموذجَ الناصعَ لعقلٍ انفتح مع مرحلة التدوين، وأظهر عبقريّاتٍ كبيرةً من أبرزها الفراهيدي والزمخشري وابنُ جنّي والجرجاني، ووصل الأمرُ ببعضهم أن احتجّ (على ندرة) بالمولّدين كالزمخشري والرضيّ والشهاب الخفاجيّ. لكنّ ذلك لا يعني الآن أن نظلّ حبيسي ما توصّلوا إليه، والعداء لكلّ جديد.

إنّ لغتَنا الآن تعاني هوّةً اتّسعتْ بين نحويّين مازالوا عند الحدود التي رُسمتْ قبل أكثر من ألف سنة. لهذا فهم مصرّون على أن يظلّ أبناؤنا في مدارسهم يضيعون جلَّ وقتهم في حفظ مقولاتٍ نحويّةٍ تزيد من غربتهم عن لغتهم، على الرغم من الدعوات الكثيرة لنحاةٍ ومهتمّين من خيرة عقولنا المعاصرة. وقد بدأتْ هذه الجهودُ مع فجر النهضة العربيّة: فالبناة المبدعون الأوائل أحسّوا بهذه الضرورة، فحاول كثيرون تبسيطَ قواعد العربية. ومن أهمّ محاولاتهم الأولى: **التحفة المكتبيّة لتقريب اللغة العربيّة** (١٨٦٨). في هذا الكتاب أسّس الطهطاوي، الرائدُ الأكبر، لأصول التأليف المعاصر؛ فكتابه لغتُه سهلة، وبلا خلافاتٍ نحويّة، مع استخدام الجداول لأول مرة، واستخدام حروفٍ كبيرةٍ للعناوين، وأضاف خاتمةً في الخطّ والإملاء وحسن القراءة. وفي السنة نفسها أصدر أحمد المرصفي: **تقريب فنّ العربية لأبناء المدارس الابتدائيّة**. ثم تتالت المحاولات مثل: **النحو الواضح** لعلي الجارم ومصطفى أمين، و**النحو الحديث** لمرسي الحميدي (١٩٢٩)، و**النحو المصوّر في قواعد اللغة العربية للمدارس الابتدائيّة** لزكي المهندس ومحمود عبد اللطيف ومحمد عامر (١٩٣١)، و**تكوين الجمل** لطه حسين وعلي وافي وأحمد الإسكندري محمد علام وإبراهيم مصطفى ومحمد الأبراشي وآخرين. ثم ألّفوا **قواعد اللغة العربيّة** (١٩٣٨)، و**تحرير النحو** لمجموعةٍ منها: إبراهيم مصطفى ومحمد برانق (١٩٥٨).

ولن أذهب بعيدًا مع هؤلاء المجدّدين، ويكفي أن أَذْكر أنّ العلاّمة شوقي ضيف قد وضع خطّةً علميّةً سهلةً معاصرة لقواعد العربيّة في كتابه، **تجديد النحو**. فاقترح: ١ ـ إعادة تنسيق أبواب النحو. ٢ ـ إلغاء الإعراب التقديريّ في المفردات، مقصورةً ومنقوصةً ومضافةً إلى ياء المتكلّم ومبنيّةً وفي الجُمل. ٣ ـ أنْ لا تُعرب كلمةٌ لا يفيد إعرابُها أيَّ فائدة في صحّة نطقها. ٤ ـ حذف زوائد كثيرة في أبواب النحو. وللمستزيد أن يعود إلى الكتاب لينظر كيف نستطيع، ببساطة وعقل منفتح، أن نكون أكثرَ خدمةً للغتنا من هؤلاء الذين يتعيَّشون على الجمود والتعقيد، ولا يرَوْن من جديدٍ تحت الشمس إلاّ الركامَ الذي يحرسونه.

❖ ❖ ❖

والمعجم العربيّ مظهرٌ صارخٌ آخر من مظاهر الجمود. فما زلنا إلى الآن نفتقر إلى مادةٍ تُتابع ما حصل من تطوّر للأساليب والمفردات. إنّ «المعاجم دراسةٌ للغة لا معاييرُ للاستعمال،» كما يقول الدكتور تمّام حسّان. لذا من غير المعقول أن تكون معاجمُنا القديمة مجرّدَ سلاحٍ يَمنع الكلمةَ من أن تتطوّر، والأسلوبَ من أن يأخذ حقَّه من التجديد. وبالتالي فإنّ حاجتَنا ماسّةٌ إلى جهودٍ أكاديميّةٍ مبدعة تضع بين أيدينا معجماتٍ تكون عونًا لطلاّب المعرفة والتعلّم المعاصر، لا المباريات في إثبات الميت والمهجور من اللغة.

أليس من حقّ المتنبّي، الذي ناظر كبارَ نحويّي عصره ولغويّيه، وكان صديقًا حميمًا لابن جنّي، أن يكون ممن يحقّ لنا أن نستشهدَ بشعرهم، وأن نتعلّم من تجديدهم في الأساليب؟ أليس صحيحًا ما يقوله ابنُ جنّي: «إنّ العربيّ، إذا قويتْ فصاحتُه وسَمَتْ طبيعتُه، تَصَرُّفَ

تمام حسّان: المتزمّتون من رجال اللغة أكثر خطأً في فهم المستوى الصوابيّ المطلوب في الحياة العامّة من الناشئين في فهم لغة الحياة اليوميّة.

وارتجلَ ما لـم يُسبقْ إليه؛ فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظًا لم يسمعاها ولا سُبقا إليها»؟ ألا ينطبق هذا على كلّ مبدع ومتمكّن في كلّ عصر، أمْ هو مقبول إذا جاء من بدويّ قديمٍ فقط؟ حتى أبو عمرو بن العلاء قال للأصمعي: «شمَّرتَ في الغريب يا أصمعيّ» حين رآه مولعًا بلغة الأعراب والاحتجاج بها، وشديدَ النفور من المولَّد من شعرٍ ونثر، في حين لا يتورَّع عن أخذ اللغة من الصبيان والمجانين من الأعراب، لكنه مع ذلك يخطِّئ شاعرًا بقامة ذي الرُّمة ولا يَحتجُّ بشعره. وهل يستطيع العقلُ أن يتحمَّل الآن أن يحتجَّ النحويُّ العربيّ بالمجانين والصبيان لأنهم أعراب ولا يحتجّ بالمتنبّي شاعرِ العربيّةِ الأكبر؟!

لقد أكّد ابنُ خلدون، الذي كان شديدَ السخرية من عَبَدة النحو التقليديّ الجامد، أنّ متعلّمي النحو «يَحْسبون أنهم قد حَصَلوا على رتبةٍ في لسان العرب وهم أبعدُ الناس عنه.» ويقول إبراهيم أنيس: «ونذهب مذهبَ المجدِّدين من علمائنا الذين ينادون الآن بإباحة القياس اللغويّ للموثوق بهم من أدبائنا وشعرائنا.» إذًا، ما الذي يمنع من الاستشهاد بلغة شعرائنا وأدبائنا الكبار المعاصرين؟ أليس طريفًا أن يخطِّئ لغويّ جامد استعمالَ «قماش» لأنّ معناها الأساسَ هو فتاتُ الأشياء، ويطْلب منا أن نستخدم كلمةَ «الواحي» بدل المذياع؟

ويكفي أن نقرأ كتبَ «الأخطاء الشائعة» و«قلْ ولا تقلْ» لنلتقي بأعاجيبَ، هي نماذجُ مجسّدةٌ لجثثٍ مازالت تحاول أن تنبضَ، على الرغم من اللغة والتاريخ والإبداع، مع أنّ هؤلاء هم ممن يصحّ فيهم قولُ تمّام حسّان: «المتزمّتون من رجال اللغة أكثرُ خطأً في فهم المستوى الصوابيّ المطلوب في الحياة العامّة من الناشئين في فهم اللغة التي نتكلّمها في الحياة اليوميّة.» واللغويّ المجدّد الكبير مهدي المخزومي يلخّص الأمر بدقّةٍ وجرأةٍ قائلاً:

«لكنّ الدارسين كانوا يَنْظرون إلى اللغة أنها قديمةٌ وثابتة، وإلى القواعد أنها خالدة. ولو كان لديهم فكرٌ لغويّ، أو نهجوا في دراسة الظواهر نهجًا لغويّاً، لكان للدرس النحويّ شأنٌ آخر. ولكنهم رأوْا أبا عمرو بن العلاء يتحرَّج في الرواية عن معاصريه، فكان ذلك أصلاً من أصول الدراسة عندهم. وتشدَّدَ المحافظون في الرواية من العرب، فاحتذوْهم وسلكوا سبيلَهم. لو كان الدارسون ينظرون إلى اللغة أنها متغيّرة أبدًا، وأنّ التغيّر عاملُ وجودها وقوامُ حياتها، لمشوْا مع الزمنِ في تقدّمه، واللغةِ في تطورها، ولاتّخذوا من لغة الأديب ـ لغةِ الشعر والكتابة عند المجيدين من الشعراء والكتّاب ـ مصادرَ لدراستهم تَبْعث في الدرس النحويّ حياةً جديدةً. ولكنهم غبَّروا يتابعون ويقلّدون في غير وعي، فآل الدرسُ إلى جدب وجمود.»

ونلاحظ في أيّامنا كيف يلاحق دعاةُ «الطهارة اللغويّة» الكتّابَ والشعراءَ ورجالَ الإعلام متّهمين إيّاهم بـ «الركاكة.» ولكنهم لا يَقْصدون فعلاً الركاكةَ (التي ندينها معهم)، بل يريدون إعادةَ الكثير من الأساليب إلى التقعُّر، ولا يعترفون بالكثير الكثير ممّا صار من طبيعة اللغة المعاصرة، والمناسِبة للاختصاص الذي تؤدّيه. ونَعْجب من جمودهم، وتصحيحاتهم التي تثير سخريةَ كلِّ مَن يقدِّر اللغةَ حقَّ قدرها، ويَعْرف أنها شجرةٌ دائمةُ التحوّل والتطوّر والنماء. فـ «من البدائه أنّ لكلّ عصرٍ لغتَه الفصيحة، وللغةِ كلِّ عصرٍ مقوّماتها،» كما يقول الدكتور كمال بشر. ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي.

❖ ❖ ❖

وختامًا، فإنّه من المهمّ أن ننبّه إلى أنّ ما نرمي إليه ذو علاقةٍ بحماية نظام العربيّة، والإيمان بأنّ الفصحى خيارٌ علميّ وقوميّ؛ وهو خصمٌ كاملٌ لمن يروِّجون لهدم نظام الفصحى، أو الاستهانة بما تشكّله العربيّةُ من رابطٍ ومحتوى لأمةٍ كاملة. وإنّني من المؤمنين بأنّ الدعوات المحمومة للنيل من الفصحى ليست بريئةً في الغالب الأعمّ، وإنما هي جزءٌ من مشروع ثقافيّ استعماريّ للتفتيت والتشويه والهيمنة، لا نرفضه فقط، بل نحاربه بكلّ ما نملك أيضًا.

دمشق